



بسم الله الرحمن الرحيم
الإخوان وتجربة الجماعة الشاملة
د. رفيق حبيب



كثرت في الأونة الأخيرة بعض الكتابات التي تتناول بالدراسة والفحص والتحليل تجربة العمل الجماعي للفصائل الحركة الإسلامية وفي القلب منها جماعة الإخوان ، ولسنا بصدد الحديث عن وجهة النظر في هذه الدراسة وما تحاول أن تقدمه من خلاصات يتفق معها البعض أو يختلف ... ولذا فقد رأينا أن يتم تقديم كتابات أخرى تتناول هذه القضية لعلها تعدل كفة الميزان

والله موفق وهو الهادي إلى سواء السبيل

الإخوان وتجربة الجماعة الشاملة

د. رفيق حبيب



يطرح دور الحركات الإسلامية العديده من التساؤلات، خاصة في المجال السياسي، وعندما نتناول كيفية قيام الحركات الإسلامية بدورها السياسي من خلال النهج الديمقراطي نتناول في الواقع مسألة الجماعة الشاملة والحزب السياسي، ولكن القضية لها العديد من الأبعاد المهمة الأخرى، فالأمر لا يتعلق فقط بالحركات الإسلامية ولكنه يتعلق أيضاً بطبيعة النمط الحضاري السائد لدينا وما يؤدي له من نمط حياتي، وبالتالي نمط في التفاعل مع مجريات الحياة بما فيها الجانب السياسي؛

ولذا يُصبح من الضروري فهم ما تمثله الحركات الإسلامية السلمية- خاصة جماعة الإخوان المسلمين- لنفهم طبيعة المشهد الحياتي ودور السياسة ومجالها.

فجماعة الإخوان المسلمين تمثل حركة اجتماعية، ولا يجوز أن نسميها إجمالاً حركة سياسية، والفارق هنا أن المجال الاجتماعي أوسع من المجال السياسي؛ لأنه ببساطة يشمل جوانب الحياة المختلفة، وفي المجال الاجتماعي مثلاً نتناول مختلف القضايا الدينية والأخلاقية وقضايا الأسرة والعمل وغيرها من القضايا الحياتية..

ففي المجال الاجتماعي يتحدد نمط الحياة- أي النمط الحضاري للأمة- ولأن أمتنا تقوم على المرجعية الدينية لذا سنجد أن المجال الاجتماعي ينتظم أساساً على القيم الدينية.

بهذا نعرّف جماعة الإخوان المسلمين بأنها "حركة اجتماعية شاملة تقوم على المرجعية الإسلامية"، وهي بهذا جماعة تمارس النشاط الحياتي بمختلف جوانبه وصوره، وعضو الجماعة ينتمي لها ليجد فيها مجالاً حياتياً واسعاً، يشمل العديد من الجوانب والاهتمامات، وهذا الأمر يختلف كثيراً عن الحركة السياسية بمعناها المتخصص، والتي تقوم على تجمع له برنامج عمل سياسي مشترك، ولا تكون بهذه الصورة مجالاً للحياة الاجتماعية المتكاملة؛ مما يؤدي إلى إقبال من لهم اهتمامات

سياسية محددة، ولهم الرغبة في العمل السياسي للانضمام للحركات السياسية، أما في الحركات الاجتماعية فيكون الانضمام لها من فئة أوسع، قد لا يكون لبعضها اهتماماً مباشراً بالسياسة.

وفي المقابل من هذه الصورة نجد أن الإقبال على الأحزاب السياسية - مقارنةً بالإقبال على الحركات الاجتماعية - يظهر أن شعبية الحركات الاجتماعية تفوق شعبية الحركات السياسية، وربما يرى البعض أن السبب يكمن في دور الدين، ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد؛ لأن الحركات الإسلامية التي لا تمارس عملاً سياسياً أو دوراً سياسياً تحظى في الكثير من الأحيان بمساحة عضوية أكبر من الحركات التي يكون لها دور سياسي، فإذا قارنا مثلاً بين جماعة الإخوان والتيار السلفي والحركات الصوفية من جهة، وقارنا بين جماعة الإخوان والأحزاب السياسية من جهة أخرى.. سنجد أن الحركات الاجتماعية لها جاذبية خاصة لدى الناس.

وهذا ما يفسر نجاح الحركات الاجتماعية ذات الدور السياسي - وهي الحركات الإسلامية - على غيرها من التنظيمات السياسية ومنها الأحزاب، ويدفعنا هذا للنظر في الحركات الاجتماعية بوصفها الأساس الذي يتجمع الناس من خلاله، ومنه تظهر القوى الاجتماعية المختلفة، والتي تكشف عن التيارات السائدة لدى الناس، وهذه القوى الاجتماعية تتبنى موقفاً ثقافياً ودينيًا محددًا، يمثل توجهها، وبالتالي يكون لها موقفها السياسي الأقرب إلى تصوراتها الدينية والاجتماعية، وبهذا المعنى نرى أن جماعة الإخوان المسلمين تمثل في الأساس قوى اجتماعية منظمة، تقوم على الدور الشامل للإسلام، وتمثل بهذا تيارًا اجتماعيًا له توجهاته الدينية والاجتماعية، وبالتالي له توجهاته السياسية.

الإخوان حركة شاملة

أردنا من ذلك الإجابة على السؤال التقليدي: هل تتحول الجماعة لحزب؟!

والسؤال يتضمن مسائل إجرائية تتعلق بوسائل العمل السياسي في المقام الأول، ولكن يمكن تغيير السؤال إلى وجهة أخرى بعيدًا عن الجدل الدائر حول موضع الإسلاميين في الحياة السياسية، ونساءل هنا: هل تتحول الحركة الاجتماعية إلى حركة سياسية؟! بل نقول هل من مصلحة الحركة الاجتماعية أن تتحول إلى حركة سياسية؟ بل نقول هل من مصلحة الحياة السياسية أن تتحول الحركات الاجتماعية - وعلى رأسها الحركات الإسلامية - إلى حركات سياسية (أي أحزاب)؟ الحقيقة أن الواقع المستمد من تجاربنا التاريخية يؤكد على فاعلية الحركات الاجتماعية - خاصة الدينية منها - وتلك الفاعلية المؤثرة على مجمل أنماط الحياة تتجاوز السياسي لترتبط بالثقافي والحضاري، وتلك الحركات الاجتماعية استمرت عبر التاريخ بصورة لم تُنح للحركات السياسية.. لهذا نرى أن نجاح جماعة الإخوان المسلمين وقدرتها على الاستمرار ارتبط أساسًا بكونها حركة اجتماعية تتبنى رسالة دينية.

نخلص من هذا إلى أولوية الاجتماعي على السياسي، وبتعبير آخر أولوية الديني على السياسي، فالحركات الاجتماعية تشكل القوى الاجتماعية التي تنتظم من خلالها حركة الناس؛ لهذا نعتبرها حركات قاعدية وأساسية، ومن تلك الحركات تظهر توجهات سياسية متباينة تستند على تنوع مواقف الحركات الاجتماعية، وبهذا يتحقق للمجال السياسي قوى تدفعه لمزيد من الحراك، وتشكل الأرضية التي يقوم عليها، وعلينا أن نلاحظ هنا أن استناد الحركات السياسية على الانتماءات الطبقية - أي الانتماء لشرائح مجتمعية كما يحدث في الغرب - لم يؤدِّ إلى تفعيل دور هذه الحركات في بيئتنا.

نفهم من ذلك أن تفعيل الحياة السياسية سوف يتحقق من خلال وجود قوى اجتماعية، تمثل القوى والكتل التي تستند عليها الحركات السياسية؛ لتكون القاعدة الجماهيرية المؤيدة لها، وبهذا المعنى نرى أن جماعة الإخوان المسلمين تمثل قوةً اجتماعيةً، وبالتالي تمثل كتلةً لها توجُّهها السياسي، واستنادًا لذلك نشأ الفصيل السياسي المعبر عن هذه الكتلة، وهذا الفصيل المنتمي للجماعة يستند في عمله السياسي على القاعدة الاجتماعية للجماعة.

لهذا يصبح من الأهمية تفعيل الحركة الاجتماعية؛ باعتبارها الأساس الأول والقاعدة الدافعة للحركة وتنظيم عمل الفصيل السياسي المعبر عنها؛ ليمثل نشاطاً سياسياً مستنداً لكتلة اجتماعية، وبهذا المعنى نقول إن الجماعة - أي الحركة الاجتماعية - هي الأساس.

والله الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل
ونسأله سبحانه التوفيق والسداد للذود عن دعوتنا وامتنا
كما ندعوه عز وجل الصبر والثبات على الطريق